الذكاء الاجتماعي

والحاجة الى التدريب الاجتماعي

للأستاذ س. م.

يولد الإنسان بمقدار من الذكاء الفطري يختلف فيه نوعا وكما عن سائر الناس ، كما يختلف في تقاسيم الوجه أو خصائص القامة . ولكنه يكتسب بعد ذلك ما يمكن أن نسميه "الذكاء الاجتماعي" وهو ينبني على المواءمة بينه وبين المجتمع بحيث يأخذ بأقيسته ويتعود عاداته ويترع نزعاته . وقد يظن القارئ أن هذه الأشياء لا شأن لها بالذكاء . ولكن قليلا من التأمل يبين لنا أنها هي معظم الذكاء إن لم نقل كل الذكاء . لأن الذكاء اجتماعي بطبيعته ، إذ لو كان الإنسان يعيش منفردا لاقتصر ذكاؤه على طلب الطعام والأنثى ومهاجمة العدو أو الفرار منه . ولكن الانسان — لأنه يعيش في مجتمع — يحتاج إلى اللغة للتفاهم . واللغة تكسبنا تسعة أعشار ذكائنا . بل هناك من السيكلوجيين من يعتقد أن التفكير هو كلام صامت لا أكثر . وسواء أسلمنا بهذه النظرية أم لم نسلم ، فإن مما لا شك فيه أن اللغة توضح تفكيرنا وتعين حدوده وتساعدنا على التقليب والتوليد الذهنيين . وليست اللغة من اختراع الفرد وإنما هي من اختراع المجتمع . فذكاؤنا من هذه الناحية اجتماعي . ثم هناك معاني الصدق والكذب والشرف والهوان والولاء والحب والطموح والقناعة وما الى ذلك مما لا يمكن أن نتخيل وجوده إلا في مجتمع . لأن الفرد الذي يعتزل الناس — إذا فرضنا أن اعتزاله كامل — لا يمكن أن يزن هذه الفضائل أو الرذائل . ونحن في حياتنا الإنسانية لا نستخدم عقولنا للبحث عن الطعام والأنثى فقط ، بل معظم ذكائنا — أكاد أقول ٩٩ ٪ منه — ينصرف الى هذا النشاط الاجتماعي . لأننا لا نبالي الطعام بمقدار مبالاتنا المكانة الاجتماعية .

وكاتب هذه السطور يعرف رجلا أعمى قد نيف الآن على الستين . ومع ذلك لا يزيد "عمره العقلي" على عشر سنوات ، لأن هذا المسكين عاش يتيما في صباه . ثم عين له وصي من قرابته . وكانت له ثروة تبعث على الطمع . ورأى هذا الوصي ، لكي يأمن على بقائه في وصايته ويمنع الشكوى من قرابته أو من القاصر أو من غيرهم ، أن يعزله عن الناس وهو في العاشرة من عمره . فوقف ذكاؤه عند هذه السن . فهو يحدثنا الآن عن حوادث وأشخاص سنة ١٨٩٠ ولا يعرف ما جد بعدها . وقد ذهبت عنه جميع الاعتبارات الاجتماعية ، حتى أنه

ليخاطبك ويده تؤدى حركات يشمئز منها الناظر . واذا سألته عن أى موضوع قريب أو بعيد أجابك بالسخف أو الصمت . وكل هذا نتيجة عزله عن الناس منذ خمسين سنة .

وأحيانا نجد أشباها لهذا المسكين . ولكنهم لم يبلغوا درجته فى هذا العته المكسوب . نعنى أولئك اليتامى الذين تربيهم زوجة الأب الكارهة أو صبيان الملاجئ الذين يحرمون عطف الأم . ومعظم الصبيان فى الإصلاحيات ينقص ذكاؤهم عن المستوى العادى . وهذا النقص قد يعود الى أن المجتمع الأول الذى عاشوا فيه كان خاليا من العطف الأبوى إما لأن الأم كانت مطلقة أو لأن الأب كان متوفى ، وإما لأن الفاقة قد شتتت الصغير بعد تشتيت أبويه . فأصبح ذكاؤه ذكاء الإجرام . خطف وهجوم وتلصص مع بعد عن التفاهم والتعاطف وما يثمرانه من استقامة ذهنية تؤدى الى التفكير الاجتماعى المتزن .

ومن الأساطير التى كنا نسمعها أن بعض الأطفال تخطفهم الوحوش ثم يحمل الحنان هذه الوحوش على العطف على هؤلاء الأطفال . فبدلا من أن تفترسهم تربيهم وترضعهم . وكنا نظن أن هذه أساطير لا أكثر . ولكن الواقع أنها حقائق لا غش فيها . وهى تكثر فى الهند حيث تجاور الغابات القرى فتخطف الذئاب الأطفال ، فأحيانا تأكلها وأحيانا تربيها . والعطف على حيوان غريب ليس بعيدا عن مألوفنا . فاننا نرى الكلاب تعيش وتلعب مع الخراف . ونرى الكلبة ترضع بنت القطة . وأحيانا يعيش الأرنب مع الثعلب .

و "كمالا" صبية خطفتها الذئاب من أحد الحقول المجاورة لقرية هندية . وكانت "كمالا" فى الرضاع أو بعده بقليل . فنشأت مع الذئاب . فلما بلغت حوالى العاشرة لمحها القرويون وعرفوها . واستطاعوا بعد جهد ان يقبضوا عليها ويعيدوها الى الحضارة . وكانت الصبية قد نشأت على أن تمشى على أربع وأن تعوى كالذئاب . وكان نظرها يسوء فى النهار ويجود فى الليل . وكانت تعتمد على الشم أكثر مما تعتمد على النظر حتى كانت تشم ريح اللحم وهو على مسافة نصف كيلومتر . وكانت عندما تسمع عواء الذئاب فى الليل تهب وتضرب حديد النافذة بيديها لكى تخرج . ولم تفلح جميع المحاولات فى ردها الى الحظيرة الإنسانية وبعث الذكاء الاجتماعى فى ذهنها .

وهنا يجب أن نقف ونتأمل حال المرأة التى يفصل بينها وبين المجتمع ، أو حال الفلاح الذى يفصل بينه وبين الحضارة ، أو حال التلميذ الذى نحضه على ألا يعرف غير البيت والمدرسة ، فإن كل هؤلاء ينقص ذكاؤهم الاجتماعى — ذكاؤهم العام — بمقدار اعتزالهم وبعدهم عن المجتمع . وهل لنا الحق فى أن نلوم ذلك الأستاذ الأمريكى الذى قال : لعل التلميذ ينتفع بالشارع الذى يقع بين البيت والمدرسة أكثر مما ينتفع بالبيت والمدرسة ؟

أليس الشارع عند الصبى هو المجتمع ؟ هو التجارة والصناعة والبوليس (الحكومة) والدين (المسجد أو الكنيسة) والوطنية (فى الأعلام والمواكب) ، وهو العلوم المختلفة فى الترام

والأتومبيل ، وهو العدالة فى القبض على اللص وهو التعامل بالنقود ، وهو احترام التقاليد والإكبار للمخترعات ؟ وأى شيء يبعث الذكاء وينميه أكثر من هذه الملابسات ؟

ولكن هذا الذكاء يحتاج إلى التدريب . فيجب أن تكون بيوتنا مجتمعات راقية وأن نجرئ صبياننا على الاجتماع بلقاء الزائرين ومؤانستهم . وعلينا أن نعقد الاجتماعات من وقت لآخر للثقافة وللتسلية والايناس وللاشتراك فى برقومى ولغير ذلك من الشئون التى تكسبنا العقلية الاجتماعية أى الذكاء . والأم التى تحرم أولادها هذا الاختلاط الاجتماعى تنقص ذكاءهم وتحيل كلا منهم إلى " كالا" هندية وإن لم تبلغ بهم إلى درجتها . وكم من أم حرمت أبناءها مجالسة الضيوف بدعوى أن الصغار لا يقعدون مع الكبار . ثم بالغت فى هذا الفصل حتى نشأ ابنها وهو ربك غشيم الحركة يخشى الغريب كأنه حيوان مفترس . ونشأت ابنتها وهى تكاد تكون حيوانا أعجم لا تعرف كيف تتحدث إلى ضيف أو تستجيب لتحية .

أجل . يجب أن نعلم أولادنا الاجتماع وألا نضن عليهم بالأصدقاء يدعونهم الى المائدة ويمثلون معهم الضيافة الراقية . ويجب أن نكلفهم أعمالا تضطرهم الى الاحتكاك بالجمهور والشراء والبيع والتنقل ، ونعهد اليهم ببعض الواجبات المنزلية ولقاء الضيوف الكبار ومؤانستهم ومحادثتهم فى السياسة والشئون العامة . واذا بلغت الصبية خمس عشرة سنة فيجب أن نعطيها النقود لكى تشترى لنفسها الفستان أو الحذاء الذى تريد ، بدلا من أن نشتريه نحن لها وهى مرتاحة وادعة فى البيت . وخير لنا ولها أن تشترى هى بنفسها سلعة سيئة وتتعلم منها ، من أن نشترى نحن لها سلعة حسنة وهى تجهل كيف تمت المساومة وكيف كان الاختيار .

ذكاؤنا أيها الناس لا ينمو إلا من الاجتماع . فلا تحرموا أولادكم هذا الاجتماع . بل شجعوهم ودربوهم عليه حتى لا ينشأوا معتوهين .

س . م .